

تجليات التحول المفهومي للمصطلح من اللسانيات إلى النقد (ثنائية البنية العميقة والسطحية أنموذجا)

د. حميدي بن يوسف
جامعة المدية

الملخص:

لقد تمّ التطرّق في هذا البحث إلى المظاهر التي يأخذها المصطلح اللساني بعد أن يتحوّل من مجال اللسانيات إلى مجال آخر كالنقد مثلا، ولقد تركّزت الدراسة على ثنائية مصطلحية لسانية - نقدية شهيرة تمثّلت في (البنية العميقة والبنية السطحية)، بحيث تمّ تتبع تعريفات هذين المفهومين في عدد من المعجمات الأدبية والنقدية العربية الحديثة. ولقد بيّنت نتائج الدراسة أنّ أغلب المعاجم أشارت إلى الأصل اللساني للمصطلحين، وإلى انتقالهما إلى مجال النقد، ولكن دون أن تتحدد معالم هذا التحول بصورة دقيقة. وخلص البحث إلى أن تتبع سيرورة المصطلحات العابرة للمجالات يمكن أن تفيد الطالب الجامعي في تأسيس أرضية معرفية لسانية تنبني عليها معارفهم في مجال النقد الحديث والمعاصر.

الكلمات المفتاحية: النزوح المصطلحي، اللسانيات، النقد، المعجم، التعليمية.

Sommaire :

Cette étude opte à définir le comportement notionnel du terme linguistique lorsqu'il entre dans un nouveau domaine scientifique (la narratologie par exemple). Elle s'est concentrée sur la dichotomie terminologique (structure profonde/ structure de surface). Le résultat de la recherche portée sur ces deux termes dans certains dictionnaires arabes modernes,

spécialisées en critique et en littérature, a montré que la plupart de ces dictionnaires ont donné une indication sur l'origine (linguistique) de ces deux termes transférés vers le domaine littéraire, mais ils n'ont pas bien clarifié les différents aspects de ce transfert.

Cette lecture a montré que l'étude du processus des termes migratoires pourra aider l'étudiant à élaborer une construction conceptuelle solide dans la linguistique et la critique.

Termes clés: exode terminologique, linguistique, critique, dictionnaire, didactique.

1 - مقدمة:

يتخذ بحثنا موقعه في المحور الثالث من محاور الملتقى، المتعلق بـ"كيفية ترقية الاستعمال المصطلحي في التكوين الجامعي، ضمن المبحث الخاص بالتحوّل المفهومي للمصطلح اللساني إلى مجالي النقد والتداولية". ويحاول التعرف على مظهرات هذا التحوّل من خلال دراسة ثنائية مصطلحية تولدت ضمن مجال الدرس اللساني، وبالضبط ضمن مدرسة النحو التوليدي التحويلي، وعبرت إلى مجال الدراسات النقدية، وهذا من خلال التعرّض إلى التحديدات الخاصة بهذه الثنائية في عدد من المعجمات الأدبية والنقدية. وسنسعى من خلال هذا البحث إلى تبين كيفية استفادة المنظومة التعليمية والتكوينية الجامعية، من هذا التحوّل المفهومي، وذلك من خلال عرض سيرورة هذا التحوّل وتقديمه للطلبة باعتباره إجراء يربطهم بمراجعياته الأولى، فتنأسس لديهم قاعدة مفهومية رصينة في مجال الدراسات النقدية.

وبناء على ما سبق فإنّ خطة البحث ستستوي على هذا النحو:

1 - مقدمة: (نتناول فيها الإشكالية، ودوافع البحث، وخطته)

2 - الاقتراض المصطلحي والتحوّل المفهومي بين المجالات العلمية

- 3 - اللسانيات ونزوح المصطلحات منها وإليها
- 4 - التحول المفهومي لمصطلحي "البنية العميقة والبنية السطحية" من اللسانيات إلى النقد (قراءة في المعجمات النقدية العربية الحديثة)
- 5 - كيفية استفادة التعليم الجامعي من رسم المسار التحولي للمفاهيم من اللسانيات إلى النقد.
- 6 - خاتمة

2 - الاقتراض المصطلحي والتحول المفهومي بين المجالات العلمية:

تشهد الساحة العلمية وجود علاقات بين العلوم تولدت جراء حاجة علم إلى آخر، أو نتيجة تناول هذه العلوم لمادة معرفية واحدة، كما هو الشأن بالنسبة للغة التي تتكفل بدراساتها علوم أو فروع علمية كثيرة، مثل: اللسانيات النفسية، واللسانيات الاجتماعية، واللسانيات التربوية وغيرها، وكل علم يدرسها من جانب معين، ووفق رؤية مستقلة.

وتتمظهر هذه العلاقات الموجودة بين العلوم في صور مختلفة، فهناك علوم تستفيد من علوم أخرى، مثل الفيزياء التي استندت في بناء جهازها المعرفي إلى الرياضيات وغيرها. وقد تبلغ قوة العلاقة بين علمين أو فرعين علميين إلى الحد الذي يشكلان دائرة تقاطع مفهومي كبيرة بينهما، فينتج إثر هذا التداخل الوثيق مجال بيئي يستمد مادته المعرفية من كلا المجالين المتداخلين، ومن أمثلة ذلك مجال اللسانيات الحاسوبية الذي ظهر بفعل تزاوج منهجي بين اللسانيات والحاسوبيات. ويظهر أثر هذا التقاطع البيئي بين العلوم على مستوى المنظومة المصطلحية، إذ إن المطلع على واقع الدرس المصطلحي يدرك بأن هذا الواقع يشهد حركة مفهومية نتجت عن انتقال المصطلحات من مجال معرفي إلى آخر، وهذا النوع من الحركة يُنعت في ميدان المصطلحية بالاقتراض. وضمن هذا السياق ترى أليس توما أن: «البحوث العلمية الراهنة أدخلت مجالات عديدة لدراسة موضوع واحد ابتغاء الحصول على النتائج المرجوة. [و] الحد اللساني المشترك لهذه الحقيقة

العلمية هو تحويل المصطلحات من مجال إلى آخر»¹. وإذا كان هذا التحويل أو النزوح المصطلحي حقيقة موجودة بين العلوم، فإنه يمكن أن تعدّ مؤشراً حاسماً في تحديد مبلغ التفاعل الموجود بين العلوم التي هاجرت منها المصطلحات وتلك التي تقبلتها.

ويُعرّف المصطلح المُقترض borrowed term في ميدان المصطلحية بأنه «مصطلح ينتمي أصله إلى لغة أجنبية أو إلى مجال آخر»². ويُستفاد من هذا التعريف أنّ الاقتراض المصطلحي يحدث ضمن إطار اللغة المتخصصة، وليس ضمن إطار اللغة العامة. ولكن ما يميّزه هو أنّه لا يحصر الانتقال المصطلحية ضمن مسار واحد، بل يحدّد مفهوم الاقتراض بالنظر إلى وجود نوعين من الانتقال؛ فالأول هو الذي يحدث بين نظامين لغويين مختلفين، ويُجسّد المظهر التحويلي الأكثر شهرة، فاللغات بفعل التطوّر العلمي المتسارع تستحدث مصطلحات في مجالات معرفية متنوعة، فتتلقفها اللغات المستقبلية تسمية ومفهوماً، أو تكتفي باقتراض التسمية للتعبير عن مفهوم معدّل أو مُغاير، فيتحقق الاقتراض المصطلحي وفق هذا المفهوم الأوّل. أمّا المسار التحويلي الثاني للمصطلحات فيقع ضمن إطار اللغة الواحدة، حيث تنتقل المصطلحات بموجبه بين العلوم.

ويميّز روبير دوبيك بين هذين النوعين من الاقتراض المصطلحي على أساس الداخل والخارج، فالأقتراض المحصل من لغة أجنبية يسمّيه الاقتراض الخارجي، أمّا الذي يتم فيه انتقال المصطلحات من مجال إلى آخر داخل اللغة الواحدة فينعتة بالاقتراض الداخلي³.

وتبعاً لذلك، فالهجرة المصطلحية الخارجية تتجاوز حدود النظام اللغوي التواصلي إلى نظام تواصلي آخر، أما الداخلية فتحدث داخل نظام لغوي واحد، ولكن الانتقال يتم من مجال علمي إلى مجال آخر⁴.

إنّ التحوّل المفهومي المقصود في مداخلتنا هذه هو الذي يحدث جراء الاقتراض الحاصل بين المجالات المعرفية، بحيث يستعير مجال علمي معيّن

مصطلحات تنتمي إلى مجالات أخرى لتسمية مفاهيم مستحدثة. وقد يُرر هذا الاقتراض بوجود علاقة مفهومية بين المفاهيم الناشئة في المجال الجديد والمفاهيم الأصلية في المجال القديم، هذا فضلا عن الحاجة التواصلية التي تقتضي المبادرة والسعي إلى إيجاد تسميات مناسبة للمفاهيم الجديدة.

وإذا كان الاقتراض الداخلي الذي يتم بين العلوم يشكّل حقيقة واقعة، فإنّ سلوك هذا المصطلح المقترض داخل المجال العلمي الجديد الذي وفد إليه يبقى محلّ استفسار. وضمن هذا السياق يورد يوسف وغليسي تساؤل السرغيني حول مصير المصطلح المقترض الوافد إلى مجال جديد، فيصرّح قائلا: «وبعد تغيّر ملامح المصطلح المهاجر يتساءل السرغيني: "هل يُصبح المصطلح من قبيل المترادف أو المتباين أو المشترك أ المتضاد؟". وهكذا تقتضي (هجرة المصطلح) أن نتّبع المصطلح حين يُهاجر من بيئة لغوية معيّنة (لها شروطها البنيوية ومواصفاتها الدلالية) إلى مُهاجر لغوي مُغاير، فنلاحظ كيف تتغيّر ملامحه حدّا ومفهوما، نسبيا أو كليّا، وقد ينتقل المصطلح ذاته من صقع إلى صقع داخل المهاجر اللغوي الواحد، فتتنوّع حدوده وتختلف مفاهيمه بحكم هذا (النزوح) الإجمالي»⁵.

ويبدو بأنّ تسمية السرغيني للحركة المصطلحية الواقعة بين المجالات داخل اللغة الواحدة نزوحاً مُصطلحياً هي تسمية تتسم بالدقة على اعتبار أنّ الهجرة تكون داخلية، وإضافة إلى ذلك، فهو يقرّ بأنّ المصطلح النازح إلى حقل جديد يتغيّر مفهومه ويتمايز عن المفهوم الأصلي. والحقيقة أنّ التغير المفهومي يحصل لا محالة، ولكن لا يمكن أن نجزم بأنّ المفهوم السابق يحى كلية ويحل محله مفهوم جديد، ولا يتبقى من آثار النزوح سوى التسمية باعتبارها دالة على مدلول مستحدث بصورة كلية.

إنّ اختيار مصطلح ما من مجال معيّن واستخدامه للتعبير عن مفهوم آخر في مجال آخر لا يكون بصورة اعتباطية، وإنّما ينبني في الغالب على علاقة مشابهة بين المفهوم الأصلي والمفهوم المستحدث في المجال الجديد، مما يعني أنّ المصطلح

المقترَض المعبر عن مفهوم جديد يظل محتفظاً بعدد من الخصائص المفهومية التي نقلها معه من المجال العلمي الأول، كما يمكن له أن يشمل خصائص مفهومية إضافية جديدة اكتسبها جراء دخوله إلى المجال الجديد، ويمكنه أيضاً أن يخضع لتعديل يطال الخصائص المفهومية التي كانت موجودة، وبذلك يكتسب حصافته. نخلص إلى القول بأنّ هذا النزوح المصطلحي الذي يحدث بواسطة الاقتراض يجسّد مظهراً من مظاهر الاقتصاد في مجال اللغة المتخصصة، فبدلاً من أن يقوم واضع المصطلحات في مجال ما باستحداث تسمية جديدة لمفهوم جديد، فإنّه يعتمد إلى استعارة تسمية مستخدمة في مجال آخر فيوظفها بمفهوم مغاير في المجال العلمي الثاني.

وإضافة إلى ذلك، فإنّ هذا الإجراء يفيد في عملية الفهم، فما دام المفهوم التي تعبّر عنه التسمية الجديدة لا ينفصل كليّة عن المفهوم الأول في المجال القديم، فإنّ هذا التشابه بين المفهومين قد يسمح للقارئ عند ملاقاته المصطلح الجديد لأول مرّة أن يتكئ على مفهومه القديم المرتبط بالمجال العلمي الذي نزع منه، للوصول على الأقل إلى فهم تقريبي للمصطلح الجديد في مجاله العلمي الثاني. بقي أن نشير إلى أنّ حجم وطبيعة المصطلحات المهاجرة بين مجالين يعدّان مؤشرين على قوة العلاقة الموجودة بين هذه المجالين، فكلما كثرت المصطلحات المهاجرة (المفتاحية على وجه الخصوص) من مجال إلى آخر كلّما وتوطّدت العلاقة بين هذين المجالين.

3 - اللسانيات ونزوح المصطلحات منها وإليها:

بالرغم من الحداثة النسبية للسانيات إلّا أنّها أصبحت في العقود الأخيرة تشكّل محوراً استقطابياً لكثير من العلوم، ويحاول عبد السلام المسدي ربط نضج اللسانيات بالجهاز المصطلحي حيث يصرّح قائلاً: «إنّ اللسانيات المعاصرة قد بلغت الآن حدّ العلم المتكامل رغم قصر المسار الزمني الذي قطعتة والذي يُجمع روّادها على الانطلاق به من دروس فردينان دي سوسير، وأوّل مظهر من مظاهر

اكتمال العلم إفرازه لثبته الاصطلاحي الخاص به، والبحوث اللسانية ما انفكت تولّد المصطلحات الفنية، بعضها بالوضع، وبعضها بالاقتباس والمجاز حتّى تسنّى تأسيس القواميس اللسانية المختصّة، وذلك أوّل مظاهر استقلال العلم بنفسه وتكامل رصيده الفنّي». ⁶ والحق أنّ ارتباط نضج اللسانيات بإنتاج منظومة مصطلحية تشكّل روح المعجم المختص مبرّر علميا؛ فالمنظومة المصطلحية التي يُجسّدُها المعجم من خلال الإحالات تتولّد من العلاقات المفهومية التي تعقدها المصطلحات فيما بينها، والتي قد تبلغ من العمق الحد الذي تتأسس عليه الأرضية المفهومية للعلم.

ولم تقف اللسانيات عند حدود تحقيق الاستقلالية والنضج والاكتمال، بل تجاوزت هذه الغاية وبلغ مداها مبلغا أصبحت فيه المستند الرئيس لكثير من العلوم الناشئة مثل: الأسلوبية، والسيمائية والتداولية. وهذا ما انعكس على صعيد التسمية، بحيث ظهرت تسميات لفروع علمية تشكّل اللسانيات أحد طرفيها، كالأسلوبية اللسانية، أو السيمائية اللسانية أو اللسانيات التداولية وغير ذلك.

وبالجملة، فإنّ النقد المعاصر يكاد يدين في منهجه للسانيات إلى الدرجة التي تلوّن فيها بصبغة لسانية طفت على السطح، بحيث إنّ الدارس للنقد البنوي مثلا يستعين بكثير من الأفكار اللسانية، ولا سيما ذات التوجه البنوي الحايث.

ويظهر هذا التأثير اللساني بصورة بارزة على المستوى المصطلحي، وذلك من خلال استعارة عددٍ كبيرٍ من المصطلحات اللسانية وولوجها إلى مجالات نقدية كثيرة، بل وأصبحت جزءا لا يتجزأ من النواة المفهومية الخاصة بمصطلحاتها، مما يعني بأنّ المفاهيم والمصطلحات اللسانية نفدت إلى عمق النظرية النقدية المعاصرة.

وفي المقابل فإنّ اللسانيات اغتنت أيضا بمصطلحات كثيرة من مجالات معرفية أخرى، فهناك عدد كبير من المصطلحات التي هاجرت من مجالات معرفية أخرى وولجت إلى المنظومة الاصطلاحية للسانيات، مثلما هو الأمر بالنسبة للاقتصاد وعلم الاجتماع وحتى العلوم الدقيقة مثل الرياضيات.

فضمن إطار العلاقة بين اللسانيات والاقتصاد، أثبتت كثير من الدراسات استفادة اللسانيين من المفاهيم الاقتصادية، فـ «تشبيه الكلمة بالعملة له أيضا تقليد ممتد زمنيا باعتباره دليلا على الارتباط الأصيل بينهما». فـ جون لوك- في كتابه [Essay Concerning Human Understanding] مقال في التفاهم الإنساني [حوالي نهاية القرن السابع عشر- يصف الكلمات باعتبارها «القاسم المشترك للتجارة والاتصال»]⁷.

ولقد ظهرت آثار هذه العلاقة بين الاقتصاد واللسانيات على المستوى المفهومي ومن ثم على المستوى المصطلحي، فلقد تبين لفردينان دي سوسير مفهوم القيمة بالنظر إلى ذلك المفهوم الاقتصادي المرتبط بقيمة العملة، ويكفي تمثيلا على ذلك أن ننقل النص التالي، يقول سوسير: «قطعة من المال، من العملة الفرنسية من جنس خمس فرنكات قد لا تكون قيمتها إلا نصف هذا المقدار فضة. وعليه قطعة من المال تقل قيمتها أو تكثر حسب ما تحمله من الصورة المصكوكة والمضروبة عليها. وهي كذلك تزيد قيمتها وتنقص حسب اختلاف البلدان التي تتداولها. وهذا صحيح أيضا بالنسبة للدال اللساني»⁸. وإذا كانت المسألة مرتبطة بالجانب المفهومي، فإن في تشابه مفهومي القيمة في مجال الاقتصاد ومجال اللسانيات مدعاة لاستخدام تسمية القيمة باعتبارها مصطلحا لسانيا بامتياز، ولكن مصدره هو المجال الاقتصادي.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد صرح فلوريان كولماس بأن «علم اللغة لا يكون معقولا بشكل موضوعي من دون مفاهيم اقتصادية» وهذا ما أثبتته بورديه (Bourdieu, 1977, 1982 من بين آخرين على نحو لافت للنظر)⁹. وهذا دليل على أن الاقتصاد في اعتقاد بورديه يشكل بحق المستند والمعين المفهومي الذي تغترف منه اللسانيات مصطلحاتها.

ومن المفيد في هذا المبحث التنبيه إلى أن هجرة المصطلحات لا تتم فيما بين العلوم الإنسانية أو فيما بين العلوم الدقيقة، بل إنها تتجاوز حدود هذا التصنيف

لتنقل في كثير من الأحيان من العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى العلوم الدقيقة التقنية، فضمن دراسة إحصائية، أشارت أليس توما في سنة 2003 إلى أن «اللسانيات تشترك مع الرياضيات في 16 مصطلحا»¹⁰، وهذا يؤكد بوجود بينية بين المجالين، وأنّ هناك مصطلحات عبرت حدود المجال الأول والتحتت بالمجال الثاني. وبالرغم من أن العدد ليس كبيرا، فإنّه مرشّح للارتفاع، وهو في الوقت ذاته يعدّ مؤشرا على سعة المنطقة التقاطعية بين اللسانيات والرياضيات.

ومن المصطلحات التي ذكرتها أليس التي تتقاطع فيها الرياضيات مع اللسانيات، وبالضبط مع المجال الفرعي الصوتيات هو مصطلح frequency أي التردد أو التواتر. والحق أنّ مثل هذه المصطلحات يحق له أن يكون مصطلحا محوريا ومفتاحيا من مصطلحات اللسانيات الرياضية على اعتبار أنّ خيوطه المفهومية قد تمّ استلهاها من كلا المجالين، ثمّ أحكم نسجها، فكان الناتج مصطلحا معبريا بامتياز.

إنّ الأمثلة الخاصة بالدراسات التي ثبت فيها التبادل المنفعي بين اللسانيات وغيرها من العلوم بصورة فعالة كثيرة. ولقد تولّد عن هذا التبادل، في كثير من الحالات، نشوء مجالات بينية متداخلة تضاعفت في عصرنا الراهن، فلقد تحدّث دافيد كريستال David Crystal في موسوعته اللغوية، تحت عنوان: المجالات البينية، عن المجالات الثنائية التي تكون اللسانيات طرفاً فيها، وحصرها في خمسة عشر (15) مجالا بينيا، وقد رتبها ترتيبا ألفبائيا، ثمّ عرفها تعريفاً مختصرا، ومن هذه المجالات البينية هي: «اللسانيات الرياضية: (Mathematical Linguistics): [التي تُعنى بـ] دراسة الخصائص الرياضية للغة، باستعمال مفاهيم من حقول مثل الجبر، الحاسوبية، والإحصاء»¹¹.

ونخلص في ختام هذا المبحث إلى القول بأن التطور الكبير والمتنامي الذي شهدته اللسانيات قد رافقته حركة مصطلحية كبيرة، تظهرت في مسارين مختلفين؛ مسار اتبعته المصطلحات التي نفدت إليها من مجالات علمية أخرى، و مسار

انتهجته المصطلحات التي خرجت منها وعبرت إلى مجالات أخرى كذلك. وهذه الحركية تبقى مؤشراً على قوة وعمق العلاقة التي تقيمها اللسانيات مع غيرها من المعارف والعلوم الأخرى.

4 - النزوح المفهومي لثنائية "البنية العميقة" و"البنية السطحية" من اللسانيات إلى النقد:

لقد تمّ اختيار الثنائية المصطلحية المتمثلة في "البنية العميقة" و"البنية السطحية" على اعتبار أنّ هذين المصطلحين شهدا نزوحاً من مجال اللسانيات إلى مجال النقد، وبالأخص إلى مجالي السرديات والسيمائيات. ويُحدّد مفهوم البنية السطحية في النحو التوليدي التحولي بأنه «التنظيم التركيبي للجملة المحقّقة، والناجئة عن تطبيق تحويلات على البنية العميقة»^{1 2}، وهذا في مقابل البنية العميقة التي تحدّد في النظرية ذاتها بأنها «التنظيم الخاص بالجملة في مستوى أكثر تجريداً، قبل أن تخضع لعدد من العمليات، (التحويلات) التي تحقّق انتقال هذه البنية العميقة إلى بنى سطحية»^{1 3}. ويظهر من هذا أنّ هذين المفهومين ارتبطا أولاً في اللسانيات التوليدية بالجملة، بحيث إنّ تركيب آية جملة، وفي أية لغة كانت، يتمثّل في مستويين، مستوى عميق يُظهر العلاقات التركيبية المجردة للجملة قبل أن تخضع لتحويلات، ومستوى سطحي يُظهر بنية الجملة الموافقة لما تظهر عليه في الكلام المنطوق، بعد أن خضعت لتحويلات تنتقل العناصر اللغوية بموجبها من موقع إلى آخر.

ولقد شهد تطور اللسانيات التوليدية استيعاب الدلالة وإدخالها ضمن إطار هذه الحركية بين البنية العميقة والبنية السطحية، وذلك بأنّ أدرجت أولاً ضمن المستوى العميق، ثمّ أصبحت مرتبطة كذلك بالمستوى السطحي للجملة.

ومن خلال الانتقال إلى المجال الأدبي والنقدي، وبالأخص في مجالي السرديات والسيمائيات، تبين أنّه تمّ اقتراس الثنائية المصطلحية (البنية العميقة والبنية السطحية) من نوام شومسكي زعيم المدرسة التوليدية التحويلية في اللسانيات لتوظّف في مجال التحليل الخاص بالنصوص السردية. ولقد حاولنا

ضمن هذا السياق معرفة كيفية تعامل المعجمي المتخصص في النقد مع هذه الثنائية المصطلحية النازحة¹⁴. فهل تمّ التعرّض في المعاجم إلى الأصل اللساني للمصطلحين، وإلى السيرورة والتحوّل المفهومي الذي لحق بهما جرّاء دخول المجال المفهومي للنقد؟ أم أنّهما اعتبرا مفهوميين منبئتين عن أصلهما؟

ففي معجم جيرالد برنس، قاموس السرديات، الذي نقله إلى العربية: السيد إمام، تمّ تخصيص مدخل تعريفي مستقل لكل قطب من قطبي هذه الثنائية المصطلحية (البنية العميقة والبنية السطحية)، ولقد عُرّف مصطلح البنية العميقة في هذا القاموس على هذا النحو: «البنية الأساسية (التحتية) المجردة للسرد . البنية الكبرى للسرد macro structure. وتتألف البنية العميقة للسرد من تمثيلات تركيبية دلالية تقرر معنى السرد، وتحوّل إلى بنية سطحية بواسطة مجموعة من العمليات والتحويلات. وفي الوقت الذي تكون فيه "العوامل" actant والعلاقات العاملة في نموذج جريماس السردية، مثلاً، عناصر لـ "البنية العميقة"، فإنّ "الممثلين" actors وعلاقاتهم يمكن أن يوجدوا على مستوى "البنية السطحية". وبينما تتطابق البنية العميقة في النماذج السردية الأخرى مع "القصة" story، يمكن القول أنّ البنية السطحية تتطابق مع "الخطاب" discours. لقد تمّ استعارة المصطلح والمفهوم من تشومسكي والنحو التوليدي - التحويلي»¹⁵.

ويظهر من خلال هذا التعريف بأنّ المؤلّف حدد المفهوم في المجال السردية، وهو المفهوم الذي يقترب في صورته العامة من مجال اللسانيات التوليدية. ثمّ أشار في ختام التعريف إلى جانب يتعلّق بمصدر المصطلح، والمتمثل في مبدعه تشومسكي ضمن مدرسة النحو التوليدي التحويلي. وبالرغم من هذه الإشارة المهمة إلّا أنّ المؤلّف لم يحدّد نقاط التشابه والاختلاف بين المفهوم اللساني والمفهوم السردية، ولم يتحدّث عن التحوّلات المفهومية التي طرأت على المصطلح بعد أن ارتحل من اللسانيات إلى السرديات.

وضمن المدخل الخاص بمصطلح البنية السطحية، حدّد المؤلّف المفهوم على النحو التالي: «الطريقة الخاصة التي تتحقق فيها البنية العميقة أو التحتية للسرد: وتتعلق البنية السطحية مع البنية العميقة بواسطة مجموعة من العمليات أو "التحويلات" transformations. هي "البنية الصغرى للسرد" microstructure. وفي الوقت الذي يمكن أن تكون فيه "العوامل" actants والعلاقات العاملة في نموذج جريماس للسرد، عناصر للبنية العميقة، فإنّ الممثلين actors والعلاقات بينهم ، يمكن أن يوجدوا على مستوى البنية السطحية. وفي نماذج أخرى للسرد، حيث يمكن القول بأنّ البنية العميقة تتفق و"القصة" story، يمكن القول بأنّ البنية السطحية تتفق و"الخطاب" discourse (أو التعبير عن القصة). والمصطلح والمفهوم مأخوذان من تشومسكي والنحو التوليدي - التحويلي»¹⁶.

وكما هو ظاهر فإنّ هذا المدخل المعجمي لا يختلف كثيرا عن التعريف الخاص بمصطلح البنية العميقة في المعجم، ويمكن تفسير ذلك بالعلاقة الوثيقة القائمة بين المفهومين، حيث إنّ البنية السطحية هي نتاج تحوّل للبنية العميقة. وما ينبغي التنبيه إليه هو أنّ المؤلّف أعاد الإشارة إلى مصدر المفهوم وهو النحو التوليدي التحويلي، ولكن دون عرض تجليات التحول المفهومي بين المجال الأصلي والمجال الهدف.

أما معجم الأسلوبية والبلاغة، الذي ألفه حسن سعيد غزالة، فبالرغم من أنّه شبيه بالمسرد، حيث اكتفى بمقابلة المصطلحات الإنكليزية بما يكافئها من العربية، إلّا أنّه أشار ضمن المدخل الخاص بالبنية العميقة إلى التشابه المفهومي الموجود بين مصطلح البنية العميقة ذي المفهوم اللساني والمصطلح ذاته الذي نزع إلى ميدان السرديات، فأرفق المفهوم اللساني بعبارة تتمثل في قوله: "بنية اللغة التحتية" أمّا المفهوم الثاني الخاص بالسرديات، فقد ذكر بخصوصه العبارة التالية: "بنى النص التحتية (للحبكة والأدوار الوظيفية للشخصيات)"¹⁷.

وإذا كانت العبارتان التعريفيتان تتوفران على مساحة تقاطع كبيرة، بحيث إنّ الاختلاف بين المفهومين في المجالين المختلفين يتعلّق فقط باستبدال لفظ اللغة بالنص، إلّا أنّ هذه الإشارة غير كافية في رأينا لإظهار العلاقة التحوّلية الموجودة بين المفهومين. ويمكن تفسير غياب هذه العلاقة بطبيعة المعجم الذي ركّز على المكافئات المصطلحية في اللغتين، وأغفل التعريفات المحدّدة للمفاهيم.

ونلمس بعض التميّز بخصوص التحوّل المفهومي لثنائية البنية العميقة والبنية السطحية عند محمّد عناني في معجمه المعنون بـ: "المصطلحات الأدبية الحديثة"، حيث أورد النص التالي: «أمّا البناء العميق deep structure والبناء السطحي surface structure فهما مصطلحان في علم اللغة، وقد وضعهما نعوم تشومسكي للدلالة على بناء تحتي أو باطني (أو قاعدي base)، للعبارة ينتج عنه (من خلال التحويلات transformations) أي عدد من العبارات المنطوقة أو المكتوبة والتي يُعتبر بناؤها سطحيًا بمعنى أنّه هو ما نلاحظه وندرسه بحواسنا. وللأسف أساء الأدباء فهم المصطلحين بسبب إيجاء كلمتي العميق والسطحي فطبّقوهما تطبيقات لا علاقة لها بالمعنى الأصلي، مما دعا اللغويين إلى تعديل المصطلحين واستخدام غيرهما»¹⁸.

وإذا كان المؤلّف قد شرح المفهومين بوضوح ضمن إطار تُربّتهما اللسانية التي نبتا فيها، إلّا أنّه حين انتقل إلى المجال الأدبي والنقدي، وهو المجال الذي يُفترض أن ينالا فيه حظّهما من التوسّع، اكتفى بالتنبيه إلى إساءة الأدباء فهم وتطبيق هذين المصطلحين. وبذلك يكون قد فوّت على القارئ فرصة معرفة دلالة المفهومين في مجال النقد، كما فوّت عنه معرفة مظاهر التحوّل المفهومي الذي حدث لهما.

وخلافا لما قام به محمّد عناني، أشار لطيف زيتوني في معجمه الموسوم بـ: "معجم مصطلحات نقد الرواية" إلى العلاقة بين مفهوم البنية العميقة اللساني وبين المفهوم النقدي، حيث أورد وفي نهاية المدخل المعجمي الخاص بمصطلح بنية

structure السياق التالي: «اعتمدت سيمياء السرد (غريماس Greimas) على أعمال يلمسليف Hjelmslev وعلى قواعد تشومسكي Chomsky التوليدية لترسم نوعين من البنى: البنية العميقة وهي نموذج يختزن كل إمكانيات السرد، والبنية العميقة وهي صورة من هذه الإمكانيات محققة في نص سردي»¹⁹.

وفي هذا السياق التعريفي تمت الإشارة إلى أصل الثنائية المفهومية المتمثلة في مدرسة النحو التوليدي التحويلي لشومسكي، وهذا شيء إيجابي، ولكن المؤلف اكتفى بهذه الإشارة، ثم انتقل مباشرة إلى المجال السردي حيث عرّف الثنائية تعريفا مختصرا، ولكنه يحوي عددا السمات المفهومية المفتاحية الخاصة بها في هذا المجال، لا سيما تلك التي تتعلق بسمة التجريد التي تميز البنية العميقة للنموذج السردي، وسمة التحقق التي تميز البنية السطحية للنص السردي.

أما سعيد علوش في معجمه الموسوم معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة،²⁰ فقد خصص للثنائية المصطلحية مدخلين مستقلين، عرض فيهما جانبا من تجليات هذين المصطلحين في السرديات والسيمائيات، ولكنه لم يشر إلى تولّد المفهومين ومصدرهما، مما يعني بأنه لم يركّز على سيروية المفهوم.

ومن خلال هذه الإطلالة على المداخل المصطلحية الخاصة بثنائية البنية العميقة والبنية السطحية في عدد من المعجمات العربية والمترجمة المتخصصة في الدراسات النقدية الحديثة يتبيّن بأن بعضها أشار إلى الأصل اللساني لهذه الثنائية، وإلى فكرة نزوحها من مجال اللسانيات إلى النقد، ولكن مظاهر التحوّل المفهومي الذي رافق هذا النزوح لم توضّح بصورة جيّدة، وهو ما لم يسمح بتكوين صورة عن التغيّرات التي طرأت عن المفهومين جرّاء الانتقال إلى المجال الجديد. وبالرغم من محاولتنا الجمع بين أكثر من تعريف، فإننا لم نصل إلى صورة واضحة تشرح عملية التحوّل هاته.

5 - تدريس المفاهيم اللسانية المتحوّلة في الجامعة:

إنّ تحصيل أي علم مرهون بمدى الإلمام بمنظومته المصطلحية المفهومية. وتعتبر المنظومة المصطلحية ذات طبيعة حركية، تتحقق من خلال التغير المفهومي الذي يعرض للمصطلحات التي تنتمي إلى مجال معيّن، أو التغير الناتج عن دخول مصطلحات جديدة من مجالات أخرى، مصطلحاتٍ تجرُّ معها ظلالها المفهومية لتلقي بها داخل هذه المنظومة الجديدة، وهو ما ينجر عنه إعادة بناء للعلاقات المفهومية بين المصطلحات التي تشكل المجال الجديد، مع ما يرافق ذلك من تعقّد لتلك العلاقات وتشابكها وتوسّعها.

وإذا أراد الطالب أن يحصّل المفاهيم اللسانية أو النقدية، فلا ينبغي له أن يكتفي بتلك النظرة التحديدية الآنية التي يُعرّف فيها المصطلح باعتباره وحدة مفهومية ثابتة، وإنّما عليه أن يحصّل تلك المفاهيم في بعدها الحركي التطوّري، وهذا لا يتسنى إلّا من خلال تقديم تعريفات شبه موسوعية تعرض تغيرات المصطلح، والتحوّلات التي لحقته منذ لحظة تولّده .

ويصرّح "سيبالا" بهذا الشأن قائلاً: «لا يُخبر التعريف فقط عن المعنى أو المفهوم المُعرّف، بل كذلك عن الحقبة [التي استعمل فيها] (...)»^{1 2}. كما ينقل عن أستاذه "برونو دو بيسي" "Bruno De Bessé" قوله بأن «التعريف يعكس التغيّرات، والتطوّرات و[حتى] تجاوزات الواقع العلمي أو التقني.»^{2 2}. وهذا يعني أنّ التعريف يُعدّ شاهداً على استعمال لفظ ما، بمعنى معيّن، في فترة محددة.

ويُستنتج ممّا سبق أنّ التعريفات التأثيلية التي تتبّع أصل معنى اللفظ وتغيّراته وكيفية انتقاله إلى لغة أخرى، وتشهد أيضاً عن ميلاد لفظ جديد بالمعنى الجديد الذي أُسند إليه لأوّل وهلة هي التي تتجسّد فيها هذه الوظيفة التأريخية، حيث تقوم هذه التعريفات، زيادةً على تحديد معنى اللفظ، بتحديد الفترة الزمانية التي استعمل فيها هذا اللفظ بهذا المعنى أو ذاك.

وإذا كانت هذه الوظيفة التاريخية تُسند إلى التعريف الخاص بالمصطلحات، فمن المفيد بالنسبة للمتعلّمين أن يتعرّفوا من خلال تعريف المصطلحات اللسانية عن السيرورة التطورية التي سلكها المصطلح بدءاً من تولّده في مجال علمي معيّن ثم معرفة مظاهر التحوّل الذي لحقه، ومختلف التعديلات والتغيّرات التي أصابت مفهومه.

ومن زاوية تعليمية، فإنّه يحسن إرشاد الطلبة إلى المعجمات اللسانية المختصة ذات التوجه التاريخي أو الموسوعي، تلك المعجمات التي لا تكتفي بالضبط المفهومي للمصطلح، بل تعرض إلى التعدد المفهومي الذي لحق بالمصطلح اللساني، والتغيّرات التي مسّت بنيته المفهومية عند نفاذه وعبوره من أو إلى مجال اللسانيات. وإذا تمكّن الطالب من تحصيل هذه السيرورة المفهومية للمصطلح اللساني، فإنّه يكتسب بصورة تلقائية معرفة بالمرجعية النظرية التي يستند إليها هذا الدرس، والتي تعدّ الأرضية التي يؤسس عليها أفكاره اللسانية المتراكمة وفق بعد سلّمي.

وإضافة إلى ما سبق، فإنّ التطرّق إلى المفهوم في المجال الأوّل الذي نرح منه المصطلح يمكن أن يضيء للمتعلّم المفهوم في المجال الثاني، لا سيما إذا صاحبت هذا التحوّل المفهومي للمصطلح تعالقات للخصائص المفهومية، تنقله من مفهوم بسيط في مجاله العلمي الأوّل إلى مفهوم مركّب ومعقّد في المجال الثاني. وعليه، فإنّ استرجاع المفهوم البسيط للمصطلح اللساني وتبيين آلية التحوّل والتركيب التي خضع لها تساعد المتعلّم على فهم المصطلح في مجاله الثاني بصورة أحسن، وهذا بالقياس إلى التعليم الذي يقدّم المفهوم المعقّد والمركّب بصورة مباشرة.

وبالرجوع إلى الثنائية المصطلحية المختارة (البنية العميقة والبنية السطحية)، ينبغي القول بأنّه على الرغم من أنّ المعجمات التي اشتغلنا عليها لم توضّح آلية التحوّل المفهومي الذي حصل بعد نزوح هذه الثنائية من ميدان اللسانيات إلى ميدان النقد، فإنّ يتوجّب على الأستاذ الذي يقدّم لطلّبه مفهوم هذه الثنائية في

الجمال السردي أو السيميائي أن يشرحها أولاً في اللغة العادية من منظور لساني، وذلك بالرجوع إلى ما أقرته المدرسة التوليدية التحويلية بهذا الخصوص، ثم ينتقل إلى تجليات هذه الثنائية في النصوص الأدبية وغيرها باعتبارها نتاجاً فنياً، ويقف عند مظاهر وآثار التحول المفهومي التي طرأت عليها بعد أن غيّرت ميدانها، وولجت إلى ميدان جديد له خصوصياته المفهومية.

الخاتمة:

نخلص من خلال هذا العرض الخاص بتجليات التحول المفهومي لمصطلحي البنية العميقة والبنية السطحية في المعجمات الأدبية العربية والمترجمة بجملة من النقاط نوجزها فيما يأتي:

- يؤكد انتقال المفاهيم والمصطلحات من مجال معرفي إلى آخر بأنّ حركية المفاهيم لا تتم داخلياً فقط وإنّما وفق بعد خارجي تنفتح من خلالها المجالات والعلوم على بعضها البعض بصورة تكاملية، سواء كانت العلوم دقيقة أو إنسانية.

- تُعدّ قوة وسرعة نفاد مصطلحات من مجال إلى آخر مؤشراً على العلاقة الوثيقة والمعقدة بين المجالين، ويساهم تكاثف هذا النزوح في نشوء مجالات بينية تجمع بين اللسانيات وعلوم أخرى.

- إن تقديم السيرة المصطلحية التي سلكها المصطلح من مجال إلى مجال من شأنها أن تضيء المفاهيم للطالب وتؤسس لديه أرضية نظرية مفهومية متينة.

- إنّ تعرّف الطالب على التغير الذي طرأ على المصطلح اللساني جراء دخوله إلى الحيز النقدي من شأنه أن يوضّح له، من زاوية مصطلحية مفهومية، كيفية تأثر النقد الحديث والمعاصر باللسانيات، كما أنّه يعدّ دليلاً مؤسساً على حصول هذا التأثير، بل على أنّ جانباً كبيراً من النقد قد انبنى وتأسس على أرضية لسانية.

- لقد تبين من خلال الدراسة التطبيقية أنّ أغلب المعجمات النقدية العربية التي تمّ الاطلاع عليها قد أدرجت مُصطلحي البنية العميقة والبنية السطحية

بمفهوميهما الجديدين، كما نبه بعضها إلى أصل المصطلح المتأتي من ميدان اللسانيات، ولكن هذه المعجمات لم ترسم بصورة واضحة ودقيقة التغيرات التي طرأت على المصطلحين عند دخولهما إلى المجال النقدي.

- يمكن التشابه الموجود بين المفاهيم المتحوّلة عبر المجالات القارئ أن يتكئ على مفهومه القديم المرتبط بالمجال العلمي الذي نزع منه، للوصول على الأقل إلى فهم تقريبي للمصطلح الجديد في مجاله العلمي الثاني.

مراجع البحث:

- 1 - جيرالد برنس، قاموس السرديات، تر. السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط1، 2003.
- 2 - زيتوني لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي - إنكليزي - فرنسي، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002.
- 3 - فردينان دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، تر. عبد القادر قنيني، مطبعة إفريقيا الشرق، 1987.
- 4 - سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1985.
- 5 - محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر لوانجمان، مصر، ط3.
- 6 - كولماس فلوريان، اللغة والاقتصاد، ترجمة: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع. 263، نوفمبر 2000.
- 7 - القاسمي علي، علم المصطلح، أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، (مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2008)، ط1.
- 8 - المسدي عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، 1986.

9 - وغلبيسي يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.

10 - David Crystal, The Cambridge Encyclopedia of Language, Cambridge university Press, 2nd edition, 1997, (sixth printing 2005).

11 - Jean Dubois (et al.), Dictionnaire de Linguistique, Larousse, ed. 2002.

Robert DUBUC, Manuel pratique de terminologie, Edition Liguattech, Wilson, Montréal, 3ed, 1992.

12 - Hassan Said Ghazala, A dictionary of Stylistics and Rhetorics (English – Arabic, Arabic – English), ELGA publications, MALTA, 2000.

13 - (La Norme ISO, Principes et méthodes de la terminologie, ISO 1087 – 1990.)

14 - Selja Sepälä, "Composition et Formalisation Conceptuelles de la Définition Terminographique", Mémoire présenté à l'école de traduction et d'interprétation pour l'obtention du DEA en traitement informatique multilingue, sous la direction du Pr: Bruno de Bessé, (Université de Genève, 2004).

15 - Alice TOMA, Terminologie interdisciplinaire, Traduire les francophonies – Rennes, 2003.

¹ Alice TOMA, Terminologie interdisciplinaire, Traduire les francophonies – Rennes, 2003, p. 257.

² علي القاسمي، علم المصطلح، أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، (مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2008)، ط1، ص. 777.

³ Robert DUBUC, Manuel pratique de terminologie, Edition Linguattech, Wilson, Montréal, 3ed, 1992. P. 67.

⁴ عرّفت مُنظّمة التقييس الدولية "إيزو" المجال "بأنه" «قسم من المعرفة تكون حدوده معرفةً من وجهة نظرٍ خاصّة». (La Norme ISO, Principes et méthodes de la terminologie, ISO 1087 – 1990.)

⁵ يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص. 47.

⁶ عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، 1986، ص. 13.

⁷ فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، ترجمة: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع. 263، نوفمبر 2000، ص. 07.

⁸ فردينان دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، تر. عبد القادر قنيني، مطبعة إفريقيا الشرق، 1987، ص. 151.

⁹ فلوريان كولماس، المرجع السابق، ص. 267.

¹⁰ Alice TOMA, Terminologie interdisciplinaire, (op. cit), p. 262.

¹¹ David Crystal, The Cambridge Encyclopedia of Language, Cambridge university Press, 2nd edition, 1997, (sixth printing 2005), p. 418.

¹² Jean Dubois (et al.), Dictionnaire de Linguistique, Larousse, ed. 2002, p. 458.

¹³ Ibid. p. 381.

¹⁴ اطلعنا على ثمانية معاجم عربية ومترجمة حديثة متخصصة في الأدب والنقد، وهي على التوالي: 1 - قاموس السرديات، لجيرالد برانس، (تر. السيد إمام)، 2 - معجم الأسلوبية والبلاغة، حسن سعيد غزالة، 3 - معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، لمحمد عناني، 4 - معجم مصطلحات نقد الرواية للطيف زيتوني، 5 - معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، لسعيد علوش، 6 - معجم المصطلحات الأدبية لإبراهيم فتحي، 7 - المعجم الأدبي لجبور عبد النور، 8 - معجم تحليل الخطاب، لباتريك شارودو ودومنيك منغنو، (تر. عبد القدر المهيري، وحمادي صمود). ولقد تبين بأن المعجمات الخمس المذكورة أولاً هي التي عرضت لهذه الثنائية المصطلحية.

¹⁵ جيرالد برنس، قاموس السرديات، تر. السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط1، 2003، ص ص. 41 - 42.

¹⁶ جيرالد برنس، قاموس السرديات، ص ص. 193 - 194.

¹⁷ Hassan Said Ghazala, A dictionary of Stylistics and Rhetorics (English – Arabic, Arabic – English), ELGA publications, MALTA, 2000, p. 22.

¹⁸ محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر لوتجمان، مصر، ط3، ص. 104.

¹⁹ لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي - إنكليزي - فرنسي، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص ص. 37 - 38.

²⁰ سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1985، ص ص. 53 - 54.

²¹ Selja Sepälä, "Composition et Formalisation Conceptuelles de la Définition Terminographique", Mémoire présenté à l'école de traduction et d'interprétation pour l'obtention du DEA en traitement informatique multilingue, sous la direction de Bruno de Bessé, (Université de Genève, 2004), p. 21.

²² Ibid. p. 21.
